المقدمات الحجاجية في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - دراسة تحليلية-

The Premises of Argumentation in Abi Hayyan's Tafsir Al-Bahr Al-Muhit -Analytical study-

د. يوسف وزري *

تاريخ الإرسال: 2021/09/01	تاريخ القبول: 2021/10/20	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

يحاول هذا المقال أن يسلط الضوء على الممارسة الحجاجية عند مفسري القرآن الكريم، وبالأخص لدى أبي حيان الأندلسي (ت745ه) في تفسيره "البحر المحيط"؛ حيث يهدف إلى رصد "المقدمات الحجاجية " المعتمدة من طرف أبي حيان، والتي تعد جانبا مهما من النظرية الحجاجية لبيرلمان وتيتيكا في كتابهما الخطابة الجديدة.

وتكمن أهمية البحث في إبراز أصالة الممارسة الحجاجية في تراثنا العربي الإسلامي من خلال تحليل النصوص التراثية بواسطة أدوات النظريات الحديثة، وتبيين اهتمام علماء التفسير بطرق الحجاج وإقناع المخاطبين.

الكلمات المفتاحية: المقدمات الحجاجية، التفسير، بِيرِلمان، البحر المحيط.

Abstract:

This research aims to highlight the argumentative practice of Tafsir scholars, especially Abou Hayyan Al-Andalousi in his book Al-Bahr Al-Muhit, it aims to observe "The Premises of Argumentation" which are used by Abou Hayyan to convince his audience, and that argument is an important part of the argumentative theory of Perelman. The importance of this article lies in highlighting the authenticity of the argumentative practice in our Arab and Islamic heritage through the analysis of heritage texts using modern theories tools, and showing the interest of Tafsir scholars in Argumentation styles and convincing audiences.

* جامعة البليدة 2 الجزائر youcefouzeri@gmail.com

***Key words**: Premises of Argumentation, Tafsir, Perelman.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: يوسف وزري youcefouzeri@gmail.com

مقدمة:

لقد حظي الحجاج باهتمام كبير في التراث العربي، سواء من جانب التنظير أو من جانب الممارسة، ولا سيما بعد الإسلام الذي ما جاء ليُكْرِهَ الناس على اتّباعه، وإنما خاطب عقولهم وقلوبهم فدخلوا فيه أفواجا بعد اقتناعهم بحجته الدامغة، وانبهارهم بمعجزته البالغة، وكان لذلك أثر في بروز الحجاج كسمة في مختلف نواحي الحياة، السياسية والعقائدية والبيئة اللغوية، فاهتم به البلاغيون والنحاة والمفسرون وعلماء الأصول وغيرهم.

وقد أردنا أن نركز في بحثنا هذا على اعتماد أبي حيان الأندلسي[1] على المقدمات الحجاجية في تفسيره البحر المحيط، والتي تعد جزءا مهما من نظرية الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا، وذلك في سبيل إبراز أصالة الممارسة الحجاجية في تراثنا العربي الإسلامي، وتبيين اهتمام المفسرين بطرق الحجاج وإقناع المخاطبين، ومن ثمة فإن البحث يحاول الإجابة على الإشكالية التالية: ما المقصود بالمقدمات الحجاجية، وكيف تجلى الاعتماد عليها في تفسير البحر المحيط؟

وقد اعتمدت في هذا البحث على التحليل وفق نظرية بيرلمان للإجابة عن الإشكالية السابقة.

2. مفهوم المقدمات الحجاجية ضمن نظرية بيرلمان وتيتيكا:

1.2 نبذة موجزة عن النظرية:

تعد نظرية حائيم بيرلمان Chaim Perelman وزميلته لوسي أُلْبْرِشتس تيتيكا Lucie Olbrechts-Tyteca أهم نظرية حجاجية في العصر الحديث، لأنها أعادت الاعتبار للحجاج بعد ما تناقصت أهميته تدريجيا داخل البلاغة[2]، وكان التركيز منصبا على الجزء التجميلي

أو التزييني فقط أي على المحسنات والصور الأسلوبية، دون الاهتمام بالإقناع، ولم يعد للحجاج وجود لا كنظرية ولا كممارسة، لا في الثانوية ولا في الجامعة..."[3] كما يقول كل من فيليب بروتون و جيل غوتييه.

وتظهر خلاصة أعمالهما في كتابهما الموسوم بـ " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة-(Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique) "الذي كان تميزه نابعا من مزجه معارفَ عدةً في تصوراته الحجاجية من جهة، ومحاولاته تخليص الحجاج من الأبنية الاستدلالية المجردة التي كانت تهيمن عليه قديما من جهة أخرى، كما أنه حاول تقريبه إلى مجالات الاستخدام اليومية واللغة المعاصرة للعلوم الإنسانية".[4]

كما تقوم نظريتهما على المقدمات الحجاجية، بالإضافة إلى تقنيات الحجاج التي تأخذ الجزء الأكبر من النظرية، فنجدهما قد حصراها في ضربين رئيسيين من الطرائق:

ضرب يتمحور حول طرائق الوصل (Processes of Association)، وضرب يتمحور حول طرائق الفصل (Processes of Dissociation) [5]، حيث "تتضمن هذه التقنيات إما إنشاء اتصال أو إنشاء تفكيكك أو فصل "[6]، ويكون الاتصال " بجمع العناصر المنفصلة معا، ما يسمح بتأسيس وحدة فيما بينها..."[7] ويكون التفكيك " بفصل وعزل وتفريق(dissociating separating, disuniting) العناصر التي تعتبر على أنها تشكل مجموعة كاملة أو على الأقل مجموعة موحدة داخل نظام معين".[8] وسنركز في بحثنا هذا على المقدمات الحجاجية التي اعتمد عليها أبو حيان في تفسيره.

2.2 مقدمات الحجاج:

ينطلق الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا من " مقدمات Des prémisses تؤخذ على أنها مُسَلَّمات يقبل بها الجمهور، واختيار هذه المقدمات وطريقة صوغها وترتيبها، له في حد ذاته قيمة حجاجية".[9]

وتتمثل هذه المقدمات فيما يلي:

أ- الوقائع والحقائق (facts and truths):

يرى بيرلمان أن الوقائع تمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس[10]، وبما أنها ثابتة فضلا عن اشتراك الناس في تصديقها فإنها تصلح لتأسيس نقطة البداية في الحجاج.[11]

أما الحقائق " فتقوم بالربط بين الوقائع ويمكن أن تكون نظريات علمية أو تصورات فلسفية أو دينية."[12]

ب- الافتراضات(consumptions):

يرى بيرلمان أنه " بالإضافة إلى اعتراف الجمهور بالوقائع والحقائق، فإنهم جميعا يقِرُّون بالافتراضات. لكن على الرغم من أن الافتراضات تتمتع باتفاق شامل إلا أن التقيد بها لا يكفي، ويتوقع المستمعون أن يتم تعزيزها في لحظة معينة بواسطة عناصر أخرى...وفي معظم الحالات يتم قبول الافتراضات على الفور كنقطة انطلاق للحجاج".[13]

كما ترتبط الافتراضات بما هو طبيعي أو عادي وبما هو محتمل...[14] وهما(العادي والمحتمل) " يتغيران بتغير الحالات، فالعادي بالنسبة إلى سائق في حالة طبيعية يكون السير فوق المعدل الأدنى للسرعة، والعادي بالنسبة إلى سائق دهس مترجلا يكون السير فوق المعدل الأقصى للسرعة، ويتغير العادي بتغير الجماعات البشرية في كل مجال من مجالات الحياة.[15]

جـ- القيم (values):

يقسم بيرلمان وزميلته تيتيكا القيم إلى قسمين: مجردة ومادية أو محسوسة، فالمجردة مثل العدل والحق، والمادية مثل الوطن (الجزائر مثلا) أو دار العبادة، القيم المادية ترتبط بكائن حي أو مجموعة معينة، أو شيء ما.[16]

وتعد القيم عنصرا أساسيا في الحجاج، خاصة " في مجالات العلوم الإنسانية، إذ يُعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين، وفي دفعهم إلى الفعل المطلوب"[17] خاصة إذا لم تُجْدِ المقدمات السابقة بسبب اختلاف الآراء، وذلك عند التسليم بأن القيم هي محل اتفاق بين الجميع.

د- التراتبيات الهرمية (hierarchies):

هذه التراتبيات ترتبط أساسا بالقيم السالفة الذكر، فالحجاج حسب برلمان وتيتيكا "لا يعتمد على القيم المجردة والمحسوسة فقط، بل يعتمد أيضا على التراتبيات الهرمية، مثل أفضلية الإنسان على الحيوان، والإله على البشر".[18]

ويرى المؤلفان أن " تراتبيات القيم -بلا ريب- في بنية حجة ما أهمُّ من القيم ذاتِها"[19]؛ وذلك لأن القيم ليست مطلقة وإنما هي خاضعة لهرمية ما، فالجميل درجات وكذلك النافع كما يقول عبد الله صولة.[20] وقد يتم قبول القيم من قبل العديد من الجماهير المختلفة، ولكن درجة قبولها ستختلف من جمهور لآخر، ومن هنا تكمن أهمية ترتيب القيم في البنية الحجاجية.

هـ- المواضع (Loci):

هي مقدمات ذات طبيعة عامة، قد يلجأ إليها المتكلم عندما يريد أن يؤسس قِيَمًا أو تراتبياتٍ هرميةً أو يريد أن يكثف الإذعان الذي يكتسبه.[21] ويمكن اعتبار هذه المواضع كـ" مخازن للحجج".[22] والمواضع منها" مشتركة أو مبتذلة يمكن تطبيقها على علوم مختلفة مثل القانون والفيزياء والسياسة كموضع الأكثر والأقل. ومواضع خاصة تكون وَقْفًا على علم بعينه أو نوع خطابي بعينه لا يتعداه إلى غيره ".[23]

ويصنف بيرلمان وتيتيكا المواضع تحت بعض العناوين العامة، مثل:

مواضع الكم (Loci of quantity):

وهي المواضع التي ترتبط بالكمية، أي تلك التي تثبت أن شيئا أفضل من شيء آخر لأسباب كمية، مثلما يذكر أرسطو أن عددا أكبرَ من الأشياء الجيدة مرغوبٌ فيه أكثر من العدد الأصغر، ومثل المقولة " الكل أفضل من الجزء".[24]

مواضع الكيف (Loci of quality):

وتكمن خاصيتها الحجاجية في" وحدتها الشكلية في مواجهة الجمع مثل موضع الحق في ذاته الذي يباين كل ما عداه من باطل".[25] ومثل "الحقيقة التي يضمنها الله فهي واحدة في مقابل آراء البشر المختلفة".[26]

ويضيف المؤلفان مواضع أخرى مثل **مواضع الترتيب (Loci of Order)** " التي تقر بأفضلية ما هو سابق على ما هو لاحق، كالمبادئ والقوانين التي تسبق الوقائع التي هي نتيجة لتطبيق تلك المبادئ أو القوانين".[27]

ومواضع الموجود (Loci of existing) " التي تقر بأفضلية الموجود والحالي والحقيقي على الممكن والمحتمل والمستحيل".[28] ويمثل له عبد الله صولة بالمثل الشعبي "عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.[29]

بالإضافة إلى **مواضع الجوهر(Loci of essence)** والتي ترتبط " بإعطاء قيمة عليا للفرد باعتباره مُجَسِّدا ومعبّرا عن هذا الجوهر"[30]، ومثاله إعطاء شخص معين صفة " جواد" لتمييزه عما سواه من الناس الذين لا يتصفون بذلك الوصف، فالأمر يتعلق في هذه المواضع بإقامة مقارنة بين الأشخاص الذين يعبرون عن نفس الجوهر."[31]

إن هذه المواضع " مثل القيم في تفاوتها ونسبيتها بين الزمان والمكان والأشخاص والمقام بصفة عامة"[32]

ويذكر عبد الله صولة (ت2009م) أن كل ما تكلمنا عنه من مقدمات للحجاج مرده إلى "ضربين اثنين:

ضربٍ مداره على الواقع Le réel وهو المتعلق بالوقائع والحقائق والافتراضات، وضرب مداره على المُؤْثَر والمفضَّل Le preferable وهو المتعلق بالقيم ومراتبها ومواضع الأفضل فيها".[33]

كما تعتبر هذه المقدمات بمختلف أنواعها" منطلقا للمحاجة يعتمد الحس المشترك Le sens commun لمجموعة لسانية معينة، والذي هو جماع معتقداتها ومناط موافقتها، بل ومناط موافقة كل عاقل، وتسمى المحاجة في هذا الحال (المحاجة الموجهة للإنسان عامة).[34]

إن كل ما سبق ذكره من مقدمات حجاجية لا تكفي ما لم يُحسن الاختيار بينها وتُجعلْ ذات فعالية حجاجية، فهي " ليست ذات فعالية في ذاتها، ولا بمعزل عن كفاءة

الخطيب ووعيه اللذين بهما تكتسب عناصر الحجاج شحنتها الحجاجية"[35] حيث إن " نجاعة العرض شرط ضروري لكل محاجة هدفها التأثير في جمهور السامعين..."[36]

3.المقدمات الحجاجية في البحر المحيط:

ينطلق الحجاج عند أبي حيان في خطابات تفسيره البحر المحيط من مقدمات يقبل بها جمهوره، فهم يشتركون فيها وربما يشترك فيها جميع الناس، ولأنها من الثوابت فهي تصلح لتأسيس نقطة البداية في الحجاج.

ويمكننا رصد العديد من المقدمات الحجاجية في البحر المحيط انطلاقا من خطبة الكتاب، وذلك إذا افترضنا أن الكتاب كلَّه متكون من عدد لا يكاد يحصى من الخطابات الحجاجية التي أنشئت لغرض تفسير آي القرآن الكريم، كما نجدها في معرض تفسيره للآيات، وذلك ما سنتطرق إليه في ما يأتي.

1.3 الوقائع والحقائق في البحر المحيط:

لقد اعتمد أبو حيان في تفسيره على الوقائع، الشيء الذي يضيف قوة حجاجية لطروحاته، فنجده يحتجُّ بالحقائق المعلومة التي لا يختلف فيها اثنان، ومن ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة 174] إذ يقول: " وذكر في بطونهم، إما على سبيل التوكيد، إذ معلوم أن الأكل لا يكون إلا في البطن"[37]؛ حيث قوى فكرة التوكيد بالاحتجاج بشيء معلوم لدى الكل.

ونجد الاحتجاج بذلك في تفسير قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا**﴾ [لنساء 137] حين يقول:" ﴿ **لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ** ﴾ الجمهور على تقدير محذوف أي: ثم ازدادوا كفرا وماتوا على الكفر، لأنه معلوم من هذه الشريعة أنه لو آمن وكفر مرارا ثم تاب عن الكفر وآمن ووافى تائبا، أنه مغفور له ما جناه في كفره السابق وإن تردد فيه مرارا."[38]

لقد احتج أبو حيان على تقدير الجمهور لمحذوف في الآية وهو "ماتوا على الكفر" لإن ذلك من الحقائق المعلومة في شريعتنا، حيث أن من تاب قبل أن تُغرغر روحه فإن الله يقبل

توبته مهما فعل من قبلُ؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[النساء18][39] ولحديث النبي ﷺ حين قال: "**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**"[40].

وكذلك اعتمد أبو حيان على الوقائع والحقائق في رده على المعتقد الباطل للنصارى، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾ [المائدة 73] إذ ذكر قولهم: " جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أب، وابن، وروح قدس. وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة، وعَنَوْا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة. وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، أو اختلاط اللبن بالماء، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد. وهذا معلوم البطلان ببديهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحدا، وأن الواحد لا يكون ثلاثة".[41]

يظهر جليا كيف رد إفكهم بحقيقة رياضية بسيطة وهي أن الثلاثة لا تكون واحدا وأن الواحد لا يكون ثلاثة، فصارت حجته مثل البرهان المنطقي والرياضي الذي لا يقبل النقض والإبطال.[42]

2.3 الافتراضات في البحر المحيط:

لقد اعتمد أبو حيان على الافتراضات لتقوية رأيه في عدة مواضع من كتابه، ومن ذلك حديثه عن "مِنْ" في معرض تفسيره لقول الله جل وعز: ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا**﴾ [البقرة25]، فهو يرى أنها " في قوله: منها، هي لابتداء الغاية، وفي: من ثمرة كذلك"[43] ولم يقبل قول الزمخشري الذي أجاز أن تكون "مِنْ" في قوله "من ثمرة" للبيان، وذلك في قوله(أبو حيان):" وكون "مِنْ" للبيان ليس مذهب المحققين من أهل العربية، بل تأولوا ما استدل به من أثبت ذلك، ولو فرضنا مجيء "من" للبيان، لما صح تقديرها للبيان هنا، لأن القائلين بأن "مِنْ" للبيان قدروها بمُضْمَرٍ وجعلوه صدرا لموصول صفة، إن كان قبلها معرفة، نحو:﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ**﴾ [الحج 30]، أي الرجس الذي هو الأوثان، وإن كان قبلها نكرة، فهو يعود على تلك النكرة نحو: من يضرب من رجل، أي هو رجل، و"

مِنْ" هذه ليس قبلها ما يصلح أن يكون بيانا له، لا نكرة ولا معرفة، إلا إن كان يُتَمَحَّل لذلك أنها بيان لما بعدها، وأن التقدير: كلما رزقوا منها رزقا من ثمرة، فتكون "من" مبينة لرزقا، أي: رزقا هو ثمرة، فيكون في الكلام تقديم وتأخير. فهذا ينبغي أن ينزه كتاب الله عن مثله".[44]

لقد بين أبو حيان أن القول ببيانية "مِنْ" ليس قول المحققين، ثم قدم فرضية مجيئها للبيان ليثبت أنه في هذا الموضع لا يصح تقديرها له (للبيان) بغض النظر عن عدم قوة هذا القول، علاوة على ذلك نجده يدعم الفرضية باستعمال تقنيات حجاجية أخرى كالاستشهاد بالآية: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ**﴾ [الحج 30] وضرب الأمثلة" من يضرب من رجل" وهذا الذي صرّح به بيرلمان حين قال إنه "على الرغم من أن الافتراضات تتمتع باتفاق شامل إلا أن التقيد بها لا يكفي، ويتوقع المستمعون أن يتم تعزيزها في لحظة معينة بواسطة عناصر أخرى"[45] ثم يعود بعد ذلك ليقدم فرضية أخرى في قوله " إلا إن كان يُتَمَحَّل[46] لذلك أنها بيان لما بعدها، وأن التقدير: كلما رزقوا منها رزقا من ثمرة، فتكون من مبينة لرزقا، أي: رزقا هو ثمرة، فيكون في الكلام تقديم وتأخير. وذلك ليبين أن هذه الفرضية غير مقبولة وهي مما ينبغي الابتعاد عنه في القرآن الكريم.

وكذلك اعتمد على الفرضية في سبيل تقوية رأيه عن المقصود بالذي بيده عقدة النكاح في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**ۚ ﴾[البقرة237] حيث أن المفسرين اختلفوا أهو الولي أم الزوج، ورجح أبو حيان أنه الزوج، واستدل بقوله:" ولو فرضنا أن قوله: أو يعفوَ الذي بيده عقدة النكاح من المتشابه، لوجب رده إلى المحكم. قال الله تعالى:﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**ۚ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾[النساء4] وقال تعالى: ﴿**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا**ۚ ﴾[النساء20] وقال: ﴿ **وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا** ﴾ [البقرة229] الآية. فهذه الآية محكمة تدل على أن الولي لا دخول له في شيء من أخذ مال الزوجة، ورجح أيضا أنه الزوج بأن عقدة النكاح كانت بيد الولي فصارت بيد الزوج، وبأن العفو إنما يطلق على ملك الإنسان، وعفو الولي عفو عنما لا يملك، وبأن قوله: ولا تنسوا الفضل يدل على أن الفضل في هبة الإنسان مال نفسه لا مال غيره".[47]

يبدو جليا أن أبا حيان استعمل الفرضية بقوله " لو فرضنا" ليقوّيَ مَوْقِفَه، ثم أتبعها بالشواهد القرآنية، وبأدلة منطقية أخرى.

وكذلك ردَّ أبو حيان على الذين رفضوا قراءة "معائش" في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾[الأعراف10] وبالأخص على قول المازني(ت247) أن أصل هذه القراءة عن نافع(ت169) ولم يكن يدري ما العربية، قال:" ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية وهي هذه الصناعة التي يُتوصَّل بها إلى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزَمُه ذلك؛ إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء".[48]

يرى أبو حيان إذن أن نافعا حتى لو لم يكن على دراية بعلم العربية – وهذا افتراض - فإنه يبقى فصيحا غير محتاج إلى الصناعة، كما أنه ليس إلا ناقلا عن العرب الفصحاء ولم يأت أي أحد منهم بالقراءة من عنده حتى يُخطَّأ.

3.3 القيم والترابيات الهرمية في البحر المحيط:

اعتمد أبو حيان في تقوية حجته على القيم، سواء أكانت معنوية مجردة أو مادية محسوسة، ومن ذلك استعماله قيمة الوطن عندما تحدث في خطبة الكتاب عن مصرَ التي اعتبرها وطنا له ومستقرا، يقول:" حتى أَلْقَيْتُ بمصرَ عَصَا التَّسْيَار، وَقُلْتُ مَا بَعْدَ عَبَّادَانَ مِنْ دَار، هَذِهِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَبِهَا طَوَالِعُ شُمُوسِهَا وَغَوَارِبُهَا، بَيْضَةُ الْإِسْلَام، وَمستَقَرُّ الْأَعْلَامِ، فَأَقَمْتُ بها لِمَعْرِفَةٍ أُبْدِيهَا، وَعَارِفَةِ عِلْمٍ أُسْدِيهَا، وَثَأْيٍ أَرَأَبُهُ، وَفَاضِلٍ أَصْحَبُهُ، وَبِهَا صَنَّفْتُ تَصَانِيفِي، وَأَلَّفْتُ تَآلِيفِي، وَمِنْ بركَاتِهَا عَلَيَّ تَصْنِيفِي لِهَذَا الْكِتَابِ".[49]

لقد مدح أبو حيان مصر في كلامه السابق، وجعل كتابه الذي سيورد فيه آراءه وطروحاته وترجيحاته إحدى بركاتها؛ ولا يمكن لأحد أن ينكر تأثير مدح الوطن في قلوب أهله وساكنيه، والذين هم في هذه الحالة أهلُ مصرَ الجمهورُ الأولُ الذي يتلقى تفسير البحر المحيط، فيمكن القول إن هذه مقدمة حجاجية قوية تساعد على تسليم الجمهور بالحجج التي سترد فيما سيأتي من صفحات الكتاب.

كما اعتمد في موضع آخر على قيمة الكعبة في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾[البقرة 125] وذلك حين قال:" لما رد على اليهود في إنكارهم

التوجه إلى الكعبة، وكانت الكعبة بناء إبراهيم أبيهم، كانوا أحق بتعظيمها، لأنها من مآثر أبيهم. ولوجه آخر من إظهار فضلها، وهو كونُها مثابةً للناس وأمنا، وأن فيها مقام إبراهيم، وأنه تعالى أوحى إليه وإلى ولده ببنائها وتطهيرها، وجعلها محلا للطائف والعاكف والراكع والساجد، وأمره بأن ينادي في الناس بحجها".[50]

احتج أبو حيان إذن بمكانة الكعبة وبعلاقتها مع إبراهيم عليه السلام للرد على إنكار اليهود التوجه إليها في الصلاة، وهي من بناء إبراهيم عليه السلام، وقد احتج بقيمة الكعبة كذلك في تفسير الآية:﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران96] يقول: "لما أمر تعالى باتباع ملة إبراهيم وكان حج البيت من أعظم شعائر ملة إبراهيم ومن خصوصيات دينه، أخذ في ذكر البيت وفضائله ليبني الحج ووجوبه. وأيضا فإن اليهود حين حُوِّلَتِ القبلة إلى الكعبة طعنوا في نبوة رسول الله ﷺ وقالوا: بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال لأنه وُضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جميع الأنبياء، فأكذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ وأيضا فإن كل فرقة من اليهود والنصارى زعمت أنها على ملة إبراهيم، ومن شعائر ملته حج الكعبة وهم لا يحجونها، فأكذبهم الله في دعواهم تلك".[51]

من الواضح إذن أن أبا حيان قد اعتمد على قيمة الكعبة مع الاحتجاج بقيمة إبراهيم عليه السلام وأعظم شعائر ملته الحج، فهو هنا لم يكتفِ بالاعتماد على القيم وإنما اعتمد كذلك على التراتبيات الهرمية (hierarchies) عندما رتب القيم في هذه البنية الحجاجية بدءا بإبراهيم عليه السلام فالحج ثم البيت أو الكعبة وذلك للرد على دعوى اليهود أنهم ينتمون إلى إبراهيم عليه السلام وادعائهم أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأولى أن يكون قبلة منها.

5.3 المواضع في البحر المحيط:

لقد كانت المواضع من المقدمات الحجاجية التي اعتمد عليها أبو حيان في تفسيره بغرض تكثيف الإذعان والتسليم من طرف الجمهور، ومن ذلك اعتماده على موضع الجوهر الذي يرتبط بإعطاء قيمة عليا للفرد ويكون بإعطاء ذلك الفرد وصفا معينا[52]، يقول في خطبة الكتاب:" محمد ذي المقام المحمود، والحوض المورود، المبتعث بالحق الأبهج

للأنام داعيا، وبالطريق الأنهج إلى دار الإسلام مناديا، الصادع بالحق، الهادي للخلق، المخصوص بالقرآن المبين، والكتاب المستبين"[53].

لقد أعطى أبو حيان قيمة عُليا لنبينا الكريم محمد ﷺ، وأعطاه عدة أوصاف، فوصفه بذي المقام المحمود والحوض المورود، المبتعث بالحق، داعيا، مناديا، الصادع بالحق، الهادي للخلق، وهذه الأوصاف مقدمة حجاجية تدعو إلى وجوب اتباع النبي ﷺ وحبه ووجوب الأخذ بما جاء به من قرآن وسنة ثابتة والاحتجاج بهما، الأمر الذي لا تخلو منه صفحة من صفحات البحر المحيط.

ويمكن أن يكون الجوهر الذي يعطى قيمة عُليا بذكر أوصاف تجعله أفضل من غيره مما يقارن به شيئا وليس فردا كما في المثال السابق، ومن ذلك حديثه عن كتاب سيبويه حين قال: "فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب، إذ هو المُطْلِعُ على علم الإعراب، والمبدي من معالمه ما دَرَسَ، والمُنْطِقُ من لسانه ما خَرُسَ، والمحيي من رُفاته ما رَمَسَ، والرادُّ من نظائره ما طُمِسَ. فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعوَّلُ عليه، والمستند في حل المشكلات إليه"[54].

إذن هو يعطي قيمة عليا لكتاب سيبويه بإعطائه أوصافا من قبيل أنه موصل إلى الفهم ومطلع على الإعراب والمعول عليه في حل المسائل وغيرها، كما نجده يذكر في طيات البحر المحيط أنه خبير بخبايا هذا الكتاب وأنه يذكر منه وجوها مما " لا يعرفه إلا من له اطلاع على كتاب سيبويه وتنقيب عن لطائفه".[55] وذلك يعد مقدمة حجاجية تؤدي إلى التسليم بآرائه، وخاصة المتعلقة منها بالمواضيع النحوية والصرفية التي نلاحظ أنه ميال فيها إلى أقوال سيبويه.[56]

كما اعتمد أبو حيان على مواضع الترتيب التي تقر بأفضلية ما هو سابق على ما هو لاحق[57]، ويظهر ذلك عندما بيّن أن " تآليف المتقدمين أكثرها، إنما هي شرح لغة، ونقل سبب، ونسخ، وقصص، لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب، وبلسان العرب. فلما فسد اللسان، وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة، والناقصو الإدراك، احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى، من غرائب التركيب، وانتزاع

المعاني، وإبراز النكت البيانية، حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، فإن ذلك كان مركوزا في طباعهم، يدركون تلك المعاني كلها، من غير مُوَقِّف ولا مُعَلِّمٍ، لأن ذلك هو لسانهم وخطتهم وبيانهم".[58]

لقد بين أبو حيان أن الصحابة والتابعين أفضل من الذين جاؤوا بعدهم فقد كانوا مطبوعين على فهم ما انطوى عليه القرآن من غرائب التركيب والنكت البيانية، لأن ذلك ما تعودوا عليه ولم يَشُبْه ما يؤدي إلى فساد السليقة، وهم غير متصفين بفساد اللسان ونقص الإدراك كما وصف الذين جاؤوا من بعدهم، ويمكن القول إن هذا الموضع عبارة عن مقدمة حجاجية مهمة تدعو إلى التسليم بأقوال الصحابة لأنه لا يكاد يخلو تفسير آية من الاستشهاد بكلامهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

كما لا ننسى حسن اختيار أبي حيان لهذه المقدمات الحجاجية ووضعها في مكانها المناسب، الأمر الذي جعلها ذات فعالية حجاجية. فهي كما قلنا آنفا " ليست ذات فعالية في ذاتها، ولا بمعزل عن كفاءة الخطيب ووعيه اللذين بهما تكتسب عناصر الحجاج شحنتها الحجاجية"[59] حيث إن " نجاعة العرض شرط ضروري لكل محاجة هدفها التأثير في جمهور السامعين..."[60].

4. خاتمة:

تُعدّ نظرية بيرلمان من أهم النظريات الحجاجية في العصر الحديث، كما أن المقدمات الحجاجية تمثل جزءا مهما من هذه النظرية، وقد رأينا من خلال ما سبق كيف اعتمد أبو حيان على تلك المقدمات بمختلف أنواعها كالوقائع والحقائق والافتراضات والقيم والتراتبيات الهرمية والمواضع كنقطة انطلاق للحجاج ولزيادة إذعان الجمهور بأطروحاته أثناء تفسير آيِ القرآن الكريم.

كما يمكننا القول إن نظرية بيرلمان ملائمة إلى حد كبير لتحليل النصوص المتعلقة بتفسير القرآن الكريم؛ ولذا نوصي الباحثين بدراسة الآليات الحجاجية لدى مختلف المفسرين وفق هذه النظرية.

5. الهوامش:

[1] هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي، ولد بـ"مَطْخَشَارش"، مدينة من حضرة غرناطة في آخر شوال سنة 654هـ، وتوفي في القاهرة سنة 745هـ. ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ج1، ص280. وينظر: شمس الدين الذهبي، معجم محدثي الذهبي، تحقيق روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص179.

[2]Philipe Breton, Gilles Gauthier, Histoire des théories de L'argumentation, Edition la découverte et Syros, Paris,2000: P31.

[3]Ibid: P33.

[4] محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م، ص 105-106.

[5] Chaim Perleman and L. Olbrechts- Tyteca, The new Rhetoric a treatise on Argumentation, translated by John Wilkinson and Purcell Weaver, University of Notre Dame; Indiana, 1st ed, 1971, P190.

[6] Sonja K. Foss, Karen A. Foss, Robert Trapp, Contemporary Perspectives on Rhetoric, Waveland Press, USA, 3rd ED, 1985: P117.

[7] The new Rhetoric: P190.

[8] Ibid.

[9] عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ص308.

[10] The new Rhetoric :P67.

[11] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص111.

[12] The new Rhetoric: P69.

[13] Ibid: P70.

[14] Ibid.

[15] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص909-310.

[16] The new Rhetoric: P77.

[17] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص112.

[18] The new Rhetoric: P80.

[19] Ibid: p81.

[20] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص110.

[21] The new Rhetoric: P83.

[22] Ibid.

[23] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص311.

[24] The new Rhetoric: P85,86.

[25] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص113.

[26] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص312.

[27] The new Rhetoric: P93

[28] The new Rhetoric:

[29] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص312.

[30] The new Rhetoric :P 94.

[31] Ibid: P95 .

[32] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص113.

[33] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص313.

[34] المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

[35] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص114.

[36] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته:316-317.

[37] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، دط، 1420هـ، ج2، ص121.

[38] البحر المحيط: 100/4.

[39] ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ج 2، ص235.

[40] رواه أحمد، حديث رقم 6160، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م، ج 10، ص300.

[41] البحر المحيط: 330/4.

[42] ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء ط1، 2006م، ص20.

[43] البحر المحيط: 185/1.

[44] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[45] The new Rhetoric: P70.

[46] يتمحَّل بمعنى يحتال ويلتمس طرقا ملتوية، ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط3، 1414، ج11، ص 616.

[47] البحر المحيط: 538/2.

[48] البحر المحيط: 15/5.

[49] البحر المحيط: 11/1.

[50] البحر المحيط: 607/1.

[51] المصدر نفسه:267/3.

[52] The new Rhetoric: P94

[53] البحر المحيط: 9/1.

[54] البحر المحيط: 11/1.

[55] المصدر نفسه: 38/1.

[56] مثال ذلك كثير ومنه: البحر المحيط: ج 1، ص180/122/113/42/30/29.

[57] The new Rhetoric: P93.

[58] البحر المحيط: 26-25/1.

[59] الحجاج في البلاغة المعاصرة: ص114.

[60] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته: ص316-317.